

من واقع اليم يتسابق فوق ارضه المتاجرون بالوطن .  
وقد يخلل لمن يعاشر « الدانوب الرمادي » ان  
بطلة القصة تطرح ذاتها كرمز للمهر الجنسي  
وحسب ، وهذه غلطة فاحشة يقع فيها كل من  
يقترّب من أدب غادة السمان متسرعاً ويلتقط من  
مجموعة قصصها السمت الوجه الجنسي الذي طالما  
اتهمت به صفحاتها الروائية . صحيح ان المذبة  
تهرب في جسد انسانها من واقع الهزيمة ، الا ان  
طرح ذاتها كرمز للمهر الجنسي يفرض — بالتقابل —  
سؤالاً أساسياً الذي هو الوجه الاخر للمهر ، وهو  
عهر الاعلام العربي ، من عاهر اكثر : المرأة التي  
تهرب في جسدها من واقع سياسي اصغر ( علاقتها  
مع حازم مدير الاذاعة ) ، ام المسؤول العربي الذي  
يبيع وطنه في أية لحظة في سبيل احتفاله بكرسي  
الحكم ، والذي ينسج قصص الانتصارات ويفبرك  
روايات الانتجازات في الوقت الذي يكون يلهث خلاله  
هاريبا من ارض المعركة ؟! لقد مررت المذبة انما  
تسببت في مقتل سبعة من الفدائيين ، بينهم اخيها ،  
وغواز — الفدائي الثامن — وحده نجا باعجوبة .  
فقد روى لها نواز ما حدث : « سمعنا صوتك وكنت  
تذيعين بلاغا مهمنا منه ان احد الجيوش العربية  
قد وصل الى مشارف القدس وسيبدأ هجومه لتحرير  
نصفها السليب . كنا نفسكر تجاه بعض الجيوب  
الاسرائيلية والمراكز ، قررنا تطهيرها وقتنا ذلك  
بحيث تصل القوات العربية في الوقت اللازم ...  
وهجمننا دون ان ندري اننا سنكون وحدنا ...  
طوقنا ... صمدنا ... لم يصل احد . صمدنا  
حتى نفدت ذخيرتنا . صمدنا حتى لم تبق فينا اصبع  
تشد زنادا . وطبعاً لم تصل الجيوش العربية كما  
وعدتنا البلاغات الكاذبة على انغام ( امجاد يا عرب  
امجاد ) ... وحدي هربت » . فأخوها وغيره من  
الرفاق ماتوا ضحية التوريط ... « ضحية العهر  
الاعلامي » .

عندما ذهبت المذبة الى حازم الذي كان بالنسبة  
اليها التجسيد الحي للسلطة والنظام اللذين كانت  
تقدسهما وتؤمن بان « وطنها دائماً على حق »  
تسأله : « لماذا خدعنا الناس ؟ لماذا ادعنا بلاغات  
كاذبة ؟ لماذا نموه الان الهزيمة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟  
صرخ بها وقال : انت عميلة . انها أصبحت تعيش  
في زمن بات التفكير فيه مرادفاً للمبالغة . « أنا  
افكر ، فانا عميل !؟ » لماذا ؟ » وكررت المذبة

الاسئلة بحرقة ، لكن حازم لم يرد وانما اكتفى  
باغلاق فيها بشفتيه . « يا ثقافة الجواب ! »  
لكنها قبلت . في صبيحة اليوم التالي للهزيمة دهشت  
المذبة حين ذهبت الى الاذاعة ولم تجدها مغلقة .  
هذه الدكان التي « استنفدت اغراضها وبساعات  
بضاعتها ووزعت مورفينها . وانتهى الامر ...  
( ترى ما الذي يتابعسون بيعة ؟ ) » ناولها  
حازم تعليقا يبين « فضائل الهزيمة للعرب » وكم  
كانت ضرورية لاذاعته . قرأته .. بصوت « بين  
النشيج وآهة رجل يحتضر » . انبها حازم على  
قراءة التعليق الرديئة : « ماذا دهلك اليوم ؟ ..  
كانت قراءتك في غاية السوء » . اجابته بقولها :  
« لانني كنت اقرأ أشياء لم أعد قانعة بها » . الا  
ان تحرك الانسان التمرد في المذبة على هذه  
الصورة لم يرض حازم ، مدير الاذاعة ، فصرخ  
بها : « رأسك الصغير لم يخلق ليفكر وانما  
لينتقزني في فراشي . اذهبى الى هناك  
وانتظريني ... » . وتصل ثورة غادة السمان  
ذروتها عندما ينتفض الانسان في المذبة بحازم قائلاً:  
« يا سيدي المحترم ... حولت حنجرتي الى  
مومس ، وشاركت في تحويل مؤسسات الاعلام  
في بلادي الى بيوتات للمهر ... انكم لا ترون في  
( العهر ) فظاعته الا حينما يتجسد في جسد امرأة  
... اما عهركم في السياسة والاخلاق والممارسات  
كلها فانكم تهربون به دون ان يرف لكم جفن يا سيدي  
المحترم ... تجنون امام جسد المرأة المستباح ،  
ولا تحسون بشيء امام جسد الوطن المستباح ...  
وطني غائبة التاريخ ... » .

ان ذلك كله جزء من واقع داعر مزق الانسان  
في المذبة ودنمه الى الهروب ، الى فيينا ، الى  
بلاد لا يعرف اهلها بصحة ( جورجي ) الاخرس .  
لقد هربت المذبة بعد هزيمة حزيران ( يونيو )  
١٩٦٧ الى بلاد نهر « الدانوب الازرق » ، الا انها  
لم تصدم — « مثل غيرها من السياح » — حين  
رأت ان الدانوب رمادي وليس ازرق . فقد خاطبت  
سائق السيارة التي قادتها الى الدانوب : « اسمع  
يا سائقي العزيز ، كل منا حزين من أجل ( دانوبه )  
الذي كان يظنه ازرق الضياء واكتشف انه نهر من  
رماد كهذا النهر ... اننا في الحقيقة ننفق اسم  
نهركم لاننا نرى عبره انهار اعماقنا التي جنست  
والتي استحالت دما مخثرا ... وفي مياهه الرمادية  
المطفأة نرى منفضة سجاثر عبرنا المليئة برماد